

الميلاد والعطاء، الجزء الأول

المتروبوليت سابا (اسبر)

تعتبر ترنيمة الملائكة، في ميلاد المسيح، الآية المفتاح لمعنى هذا العيد، عملياً. صدحت ملائكة السماء مرثمة: "المجد لله في العلى، وعلى الأرض السلام، وفي الناس المسرة" (لو ١٤/٢). الله ممجد دوماً في العلى، وبحضوره يتحقق السلام على الأرض، وتدخل المسرة إلى قلوب البشر وإلى نفوسهم.

فإذا كان مجد الله في العلى والسلام على الأرض ومسرة الناس مترابطة، فإن مسؤولية تحقيقها تقع على المؤمنين أولاً. يعلمنا تجسد الرب يسوع أن نكون سعاة السلام ورسل المسرة. وهذه المسؤولية الكبرى لا تتم بالاهتمام المفرط بمظاهر العيد، بل بالعمل، جدياً، على أن يكون الرب حاضراً في حياتنا، وموجّهاً لها على الدوام.

من هنا يكتسب هذا العيد أولوية، في اهتمام المؤمنين بمعرفة كيفية ولادة يسوع المسيح في نفوسهم. فإن بقاءهم، في العيد وما بعده، على ما كانوا عليه قبله، يعني أن العيد لم يحقق هدفه فيهم. الأعياد الكنسية محطات لمراجعة الذات، وانطلاقات جديدة، إلى مدى أكثر تقدماً، في حياة الفضيلة وإثمار الروح القدس.

عيد الميلاد اليوم، محطة أساسية للتفكير بإدخال المسرة إلى قلوب البشر المحبطين والمحزونين والمهجرين والمتألمين، وهم حولنا في كل مكان. للأسف، هم في ازدياد. السؤال الأهم: كيف نحمل لهم المسرة؟ والجواب واحد: بالعطاء. بالعطاء معنوياً وروحياً وعاطفياً ومادياً. مراجعة العادات المرتبطة بهذا العيد أمر لازم وضروري لجميع المؤمنين. هلا دعونا بعضنا إلى تفعيل مشاركتنا في جلب المسرة إلى إخوة وأخوات لنا في الله، في هذا العيد.

كيف نعود بعادات العيد إلى أصلها؟ لناخذ مثلاً يتعلّق بالتقليد الدارج، بخصوص تبادل الهدايا وتوزيع الصدقات، على المعوزين، في هذا العيد

المبارك. يعود أصل هذا التقليد، إلى الإيمان المسيحي القائل بأنّ الله قد أهدى البشريّة الهدية العظمى في الميلاد، حيث أنّه قدّم للبشر الأقبوس الثاني من الثالث القدّوس، كلمته، ابنه، لكي يخلّصهم. لذلك يقَدّم المؤمنون الهدايا لبعضهم بعضاً، عربون شكر لله، على عطيتّه العظمى (المسيح).

ومثل كلّ شيء سامٍ، يشوّهه البشر الخاطئون، ويحرفونه عن معناه الأساسي، فإنّ هذا التقليد تشوّه بالاستهلاكيّة المفرطة، وتبادل الهدايا كمجرّد تقليد موسمي، تفرضه هذه العادة. يمكن للمرء أن يرى الإفراط في هذا المجال. ألا يتمّ تبادل الهدايا بين الناس، لمجرّد "إنّه الميلاد It is Christmas"، بغضّ النظر عن الشخص، الذي تُقدّم له، وعن حاجته لها. لكنّها تبقى عادة جميلة، وإن كانت بحاجة إلى مزيد من الروحنة والشخصنة.

المؤمن يقَدّم ذاته أولاً تقدمة صافية للربّ. أتى الربّ إلينا ليخلّصنا، لذا، فنحن بدورنا، نقدّم له ذواتنا نقيّة طاهرة بتوبة صادقة وتغيير ملموس نحو الأفضل.

ثمّ يقَدّم، لإخوته وأصدقائه والمقرّبين منه، تقدمةً فرحة بسيطة ومعبرة. من هنا درجت العادة، في هذا العيد، على أن يجتمع جميع أفراد العائلة ليلة العيد، حول عشاء الميلاد سوياً.

أمّا الأهمّ فهو، افتقاد المحزونين والمعوزين والمهمّلين، بما يستطيع المؤمن توفيره خلال فترة صوم الميلاد، وتقديمه لمن هو بحاجة إليه منهم. هذا العيد مناسبةً لممارسة العطاء. أعطانا الله ذاته، فنعطيه ذاتنا. افتقدنا الله برحمته الواسعة، فنفتقد الآخرين بمحبّتنا المستقاة من محبّته.